الموت خنقا بحبال المحبة!

ليليات

بسلاسل من فجر قيدها ، وبنور الحب سد أفقها .. وسقط ظله عليها ونسج قسناها .. فغزلت له جلبابا بخيوط حنانها .. فطرق بخفقات قلبه عنقها . فخنقت بحبال المحبة حريتها .. ومشت في ظله .. وعاشت في ظله .. وعشقت ظله ، إلى حد أن ذابت فيه وصارت ظل ظله .. وبسلاسل من ليل قيدت فجره . وبظله طوقت نوره .. فسقطت الشمس في الفخ ، وأصبح نورها أسير ظلها ، وأشعتها قضبان سجنها .. فمن نصب فخا لامرأة وقع فيه .. ومن بسط جناحيه عليها عاش بين سجن ذراعيها ، إلى أن تنخلع روحه عن جسده ، ويفارق ظله جثته .

في شهر سبتمبر ١٨٦٢ تزوج الكونت ليون تولستوي (٣٤ سنة) سونيا بيرز (١٨ سنة) .. ومن شدة حبه لها غار عليها .. ومن شدة حبها له غارت عليه . ومع الدلاع نيران الغيرة نشبت معارك الحب .. فتولستوي يحاول أن يروض زوجته ، ويكبح جماحها ، ويكبت كل انطلاقة لشبابها . وهي تأبى الإذعان له ، وتتمرد على استبداده خوفا من أن يطحن كيانها ، ويمحو شخصيتها .. ومع سقوط الحليد فهجرت سونيا من هدوء الريف وعطر الشيخوخة الذي يفوح من زوجها ومن بيته .. واشتاقت إلى موسكو ، وإلى بيت أبيها وإلى أمها وأختها تانيا ، لا ليزا التي حطمت هي ضنا عريسها .. كما ذكرت في الأسبوع الماضي .

القبلة المغشوشة !

ووافق تولستوي بعد ثلاثة شهور زواج ، على أن يعود إلى موسكو مع زوجته لترى أهلها ، ولقضاء أعياد الميلاد ورأس السنة معهم .. وأقاما في فندق لاي شقة الكرملين حرصا على مشاعر ليزا ، وخوفا عليها من أن تموت غيظا إذا رأت سعادتها الصاخبة ومعارك حبها الضارية .

وبقدر ما فرحت سونيا برؤية أهلها ، وبالذات أمها وتانيا ، أصيبت بخيبة أمل .. إن بيت أبيها ، عشها الذي كبرت فيه ، ووضعت فيه الحب والحنان ، لم يعد عشا تخرج وترتع فيه .. بل بدا لها كصحراء يواحة بها عيون ماء وخيل ، ولكن لا ماؤها يروي ، ولا بلحها يشبع .. إن جدران بيتها تستقبلها بفتور ، وأذرع المقاعد ترحب بها كضيفة ، والنوافذ تنظر إليها كغريبة ، وحجرتها بعد هذا العمر الطويل تتبرم من وجودها ، وسريرها بعد عشرة تمانى عشرة سنة شاركها فيها نومها وسهدها وأحلامها وكوابيسها .. انقلب عليها فجأة ، وأبغضها وتركها ، ورفض أن ترجع إليه وطلقها بالثلاث .

سرير حائن حقا .. ومن لا يخلص في لا أبالي به .. ومن لا يوفرني لا أوفره .. ومن لا يأخذني كحلا في عينه لا أعده نعلا في رجل .. ومادام عشها القديم ينبذها ، بل يكفل حجارته بقطعها تماما كما قطعتها أمها من قبل ، فلتدر له ظهرها ولتعامله لا بالمثل .. عشها الحقيق هناك في بيتها ، في غربة زوجها .. لا مكان لها وسط هؤلاء الناس الذين كانوا من قبل حياتها وكل دنياها .. الحفلات الراقصة لم تعد تغريها . نزلة الفتيات لم تعد تستمتع بها . تفاهات الشبان لم تعد تسليها ، وكلماتهم المصولة سم نافع على قلبها . فحديث زوجها فقط هو السحر الحلال .. ولكنه منذ وصولها إلى موسكو ، يتركها طوال النهار في بيت أبيها ليجري ويمرح مع أصدقائه .. وجرى قلمها وكتبت في يومياتها : « فلتعد فورا إلى العزبة ، حيث ليوفوتشكا يعيش معي ولي ، حيث أنا وحدي أستمتع به ولا أحد يشاركني فيه .. أحب حياتي معه في الريف ، ولن أبادل بها حياة أخرى أيا كانت ..

وتولستوي هو الآخر غير سعيد بوجوده في موسكو .. فهو لا يستطيع أن يحبس زوجته في الفندق ويحبس نفسه معها ، ولا يستطيع أن يمنعها من زيارة أهلها ويمنع نفسه من زيارة أصدقائه ، ليبقى إلى جوارها ويحرسها بعينيه . ويحميها من عيون الشبان التي لا هواية لها سوى صيد النساء بشبكة من النظرات .. وسخط على نفسه وعليها .. وتحجج بنسمة هواء عربة لمست خدها ، ونظرة طائرة هبطت على ذقنها . وكلمة حلوة مدحت فستانها ، ليتغص عيشها ويتكد عليها أيامها .

وفقد أعصابه في إحدى الحفلات ، حينما رآها ترقص مع بوليفانوف ، الضابط الشاب الوسيم الذي كان يحبها ويرغب في الزواج منها . وانفجر فيها حينما طلبت منه يوما ألا يسهر مع أصدقائه .. وبالطبع بعد أن يصرخ ويزعق ، يبدأ ويعتذر .. ثم يسجل قلمه المعركة التي انتهت بلا غالب ولا مغلوب ، ويقول : « ٨ يناير ١٨٦٣ : تشاجرنا ثم تصالحنا .. وكما يحدث عادة بعد كل مناقرة ، تضايقت من نفسي أشد الضيق ، والسبب هذه القبلات التي ليست في الواقع سوى ترميم للشرخ يحبس مغشوش .. بعد العشاء تشفق الحبس وانهدت الخيطان على رأسي .. دموع وتشنج وغليان دم وثورة أعصاب .. أقوى دليل على حبي لها أني لم أغضب .. البقاء إلى جوارها في البيت شيء لا أحتمله ولا أقدر عليه .. أحس بعذابها ، ولكني أنا أيضا أتعذب ، وعذابي يفوق عذابها بكثير ، ولا أستطيع أن أقول لها شيئا ، وفضلا عن ذلك لا يوجد شيء يمكن قوله .

لدغات الزمن

وبعد يومين تركها في الصباح في الفندق ، بعد أن وعدها بأن يتناول الغداء معها .. ولم يخرج من حجرتها ، وانتظرته وأرهفت الساعة بنظراتها .. وأرهقتها الساعة بعقاربها ، ولم تفعل شيئا ، وفكرت فيه وفي نفسها .. ألم يكن من الأفضل أن يبقى إلى جوارها ؟ .. ما معنى جريه يمينا وشمالا بهدف أو من غير هدف ؟ .. ما معنى انشغاله

بأعمال حقيقية أو وهمية ؟ .. لا شيء في الدنيا يستحق منه

هذا التعب ، ويستأهل أن يجري وراءه هذا الجري .. إن حياته هنا إلى جوارها .. ونعيمه هنا بين رموش عينيها ودائرة ذراعيها ..

صدق الفيلسوف بأسكال حينما قال : « شقاء الرجل في الدنيا مصدره شيء واحد ، هو عدم قدرته على البقاء في حجرة بهدوء وسكون » .. وفات الفيلسوف الفرنسي أن شقاء المرأة في الوجود مصدره قدرتها الخارقة على البقاء في زنزاناتها في انتظاره عودة عصفورها الطليق إليها .

وفي الساعة الواحدة أعطت سونيا أذنيها للباب ، وترقبت خطوات زوجها ، ولم تسمعها .. فقلصت أظافرها . وفي الساعة الثانية قفزت عيناها على مقبض الباب ، وانتظرت أن يظهره بقبضة يده ، ولكن المقبض لم يطاطئ رأسه وظل كما هو شامخا .. فسئمت تمثالها وشحذتها . وفي الساعة الثالثة زقزقت عصافير بطنها من الجوع ، فلعنت ريشها وأحرشتها .. وفي الرابعة زحفت جحافل النمل على يديها وغسلتها .. فأبادت جيوش النمل وطقطقت أصابعها .. وفي الخامسة أحضرت الخادمة الشاي ، وسألتها إن كانت بحاجة إلى شيء ، فلم تقل لها إنها بحاجة فقط إلى زوجها لتذبحه وتشرب من دمه .. وفي السادسة هجم الصداع على رأسها ، فتوسلت إلى زوجها الغائب أن يسلقها كقطة لتسند رأسها عليها . فسمعها وهو على بعد عشرين ميلا ، وهز لها كتفيه من بعيد .. وفي السابعة رأت من خلف زجاج النافذة عربة حبل تقترب من الفندق .. أخيرا فرحت .. وفرحة لم تتم . فقد واصلت العربة سيرها ، وسحبت الخيل تضرب بحوافرها أسفلت الشارع .. فالتصقت الخوافر بحلقها ، فلعنتها بفنجان شاي بارد . وفي الثامنة عرفت أن الزمن جلاد قاسي القلب لا يرحم المحكوم عليهم بالانتظار .

وفي الساعة التاسعة اختنقت ، ففتحت نافذة زنزانتها .. فأطفأ منها الليل ومعه السماء والنجوم ، وقالوا لها جميعا في صوت واحد : « اسكتي لقد تعبت مسامعنا من شكاواك ! » .. فسكتت خوفا من أن تلوث الهواء بأنفاس عليلها .. ونظرت إلى الأشجار وأنانيتها الرهيب ، فالثلج يكسوها بكفن أبيض ، نفس مصيرها لو لم يعد زوجها فورا .. وأغلقت النافذة ولعنت فستانها ، وتكفنت بقميص نوم أبيض استعدادا لموتها .. وهبت عاصفة من الشتائم على شفتيها ، ولمع برق الشر في عينيها ، وارتفع صوت الرعد من كل مسامها .. لقد عاودته الحنين إلى حياة القسق والاعتلال .. إنه ذهب إلى الغجريات ليستمع إلى غنائين .. إن الغجرية كانت عشيقته السابقة تجلس الآن على حجره ، وتغني له أغنيته المفضلة « قل لي لماذا ؟ » وبين مقطع وآخر تهمس في أذنه بأنه رجل حياتها ، وتحذره بوشوشتها ، ويستسلم لسحرها .. لن يعود إليها .. سوف يهجرها ويعيش مع عجوزة في عزبته .. فمن أشبه أحاه فما ظلم .. وأخوه يعيش مع عجوزة منذ سنوات .

وفي الساعة العاشرة شيبتها خواطرها السوداء .. وعرفت أن شهادة الميلاد هي أكاذيب الأكاذيب في تاريخ كل البشر .. فعمرها الآن مائة وتسعون سنة لا تحاني عشرة سنة كما تقول شهادة ميلادها . وفهمت لماذا ترفض المرأة أن تقول عمرها حتى لا تكذب وتذهب إلى جهنم .

وذهبت وجاءت خطوات حزينون معمرة ، من النافذة إلى الباب أو منط إلى المرآة .. والحنى ظهرها وتقوس ، وتخلخلت أسنانها وسقطت .. وعاشت بلا أمل في صحبة الخيطان .

وبعد منتصف الليل بقليل ، وقفت عربة حبل أمام باب الفندق ، ونزل منها تولستوي .. وتحكك المعمرين والمعمرات فقزت سونيا في السرير ، وضبطت إيقاع أنفاسها ، وتظاهرت بالنوم العميق .. ودخل تولستوي الحجرة على أطراف أصابعه ، وطبع قبلة بيضاء على خدها الأحمر .. فنبتت أنيابها من جديد ، وصغرت مائة وخمسين سنة .. واستمرت في ضبط إيقاع أنفاسها .. ولما شقشق جملها وارتفع هدير شخيره ، وتأكدت أنه في سابع نومة ، عاد إليها شبابها ، وفردت ظهرها ، وتمددت جنبه .. ثم بعد لحظة عادت إليها طفولتها .. وأصبحت طفلة في السابعة من عمرها ، فما يد كيد الخاون .. وبكلتا يديها دقت عظامه .. فهرب النوم من عينيه ، ولكنه لم يفتحها .. فهو مذنب ويستحق السحق .. فأرجعتها يداها ، فأراحتها استعدادا لجولة أخرى .. فأشفق عليها ، وبشفتيه خطف أوجاع يديها .. فاصطادت قبلاته براحتي يديها ، وألقتها بعل على الأرض ، فلم ييأس .. وبيد تحت السماء على كتفها ، وبيد رصع بالنجوم ليل شعرها .. فلمع شعرها وبرق ، وأبيض وتلألأ ، وأرته النجوم في عز الظهر .. وزعقة فصيحة ، فقطعة فلكة ، فوكزة فوخزة ، فوكسة فنكسة .. فلامة فدامة .. فصلح فسلام .. فلا حور في حب لا يشرب فيه الحبيب الخلو مع المر .. والزواج عشرة ، والعشرة محاملة لا معاملة ، والمحاملة لا تحتمل الحساب والضرب .. وكل خطأ إذا سبب الصواب فهو ضرب من الصواب .. وهو وعدها بألا يتكرر ما حدث ، فيسامحها وحافظ تولستوي على وعده لها .. وأفطر وتغدى وتعشى بها ومعها .. وأكلها قبل أن تأكله .. وذات مساء وهو يقرأ قصة لبوشكين ، سمع قلمها يصرصر بصوت مزعج فوق كراسة يومياتها .. فانحنى فوق كتفها وقرأ : « أفهمني ليوفوتشكا برقته الفطنة وأسلوبه المتلوي . أنه من رابع المستحيلات أن يكتفي بحياته الأسرية ، وأنه بحاجة إلى اهتمامات ومشاغل أخرى .. » ..

فخطف منها القلم ، وأضاف بخط يده : لست بحاجة إلى أي شيء أو أي شخص ما عداك أنت ، فتصلص جناحيها ، ولم تستطع أن تطوقه بعنف بذراعيها إلى أن تكسر ضلوعه . فاكتفت بشفتيها . وقبلته قبلة تحسدها عليها القبلة النارية بكل الكترونياتها وبروتوناتها ونيوتروناتها .. ولولا لطف الله لمات تولستوي

الحقيقة في مزاد علني

ثم رجع العجل إلى بطن أمه .. وعاد تولستوي إلى الروغان والزوغان .. فرجعت ريحة الى عادتها القديمة .. وعادت سونيا إلى غيرتها الأصيلة .. ولسعتها الظنون ولدغتها الشكوك ، وزحفت عليها الهموم وتسلقتها الغموم ، وانشقت الأرض وبلعت سرورها .. ثم انتهت الأحوال الزوجية ، وخرج هو وهي خروج البدر من خلال السحاب .. ثم من جديد انفتح الضباب وساد الصفاء .. وتنفسا الصعداء .. ثم استنشقا عطر البلاء .. وزفير ثم شهيق .. وانقباض ثم انبساط ، وشدة ثم فرجة ، وفرحة ثم غمة ، ونعمة ثم نقمة ، وضحك ثم بكاء ، ويأس ثم رجاء ، وسخط ثم رضا .. وهلم جرا ...

ودار حولها ، ودار حول نفسه .. ودارت حوله ، ودارت حول نفسها .. ودوخها ودوخته .. وأذهله تقلبها وتغيرها ، ونسي تقلباته وتغيراته .. وقزع من قفزاتها من الأرض إلى السماء والعكس ، ونسي قفزاته البهلوانية من الأبيض إلى الأسود والعكس .. وقاته الأهم وهو أن إعجاب العاشقة بلا حدود بالمعشوق سبب من أسباب التغير والتقلب والتبدل والتحول .. وإعجابها الشديد به لا يمكن أن يلجمه بلجام ، وحبها المهول له لا يمكن أن يقوده بزمام .. فما العمل ؟ .. أن يرضى بما تخيرها وبشرها .. وهذا حدث .. أن يحاول قدر الإمكان فهمها .. وهذا مستحيل المستحيلات ، لأنه رجل وهي امرأة .. وامرأة غير عادية

فسونيا لها عقل لا يتوقف عن العمل ولا يعرف العطل ، ومخ يدور بمحركات لا تكف عن الدوران ، وذاكرة لا تفرغ بطارياتها أبدا .. وهي تجد متعة فائقة في الكشف عن خبايا نفسها ، ثم تحليل كل كبيرة وصغيرة منها ، ثم تشريح كل خلجاتها ، ثم عصر وتصفية كل هواجسها ، ثم تقشير خواطرها قشرة قشرة ، ثم فصها فصا فصا .. ثم تسجيل نتائج فكرها بقلمها .

والخلاصة أنها معلقة في الهواء بحبال الهوى ، وتتأرجح من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال . تارة تحب زوجها بجنون . وتارة تبغضه بهستيرية .. تارة تود لو كان دمها حبرا وجلدها ورقا وأصابعها أقلاما ، لتكتب له بكل قطرة من دمها كلمة « أحبك » فوق كل مليمتر من جسمها ، وتارة تود لو كانت بعين عمياء وأذن صماء حتى لا تراه ولا تسمعه .. تارة تتلهف عليه ، وتارة لا تطيقه .. تارة ترجو وتتمنى أن تذيب شخصيتها في شخصيته ، وتارة تخشى ان ترى الدنيا من خلال عينيه خوفا من أن تتلاشى معالم ذاتيتها ..

تارة تعلن فرحتها في العيش في ظل رجل عظيم ، وتارة تصرخ بقلمها .. « أحس برغبة حمقاء في أن أمارس سلطتي عليه ، لمجرد أن أراه يخضع لي » ..

تارة تشكو من برودة الحليدي ، وتارة تشكو من لهيب البركاني ، تارة تجده عجوزا وحملا وأنانيا وشيطانا شهوانيا وحلقا وطاعية ، وتارة تعترف بسن قلمها : « هناك لحظات – وما أكثرها – أحس فيها أني مريضة جدا .. أتعذب وأنا أنظر إليه .. أتعذب وأنا أستمع إليه .. أتعذب وأنا الى جواره ، تماما كما يتعذب الشيطان وهو إلى جوار قديس .. » ..

ومن سوء حظه وحظها أن زمن الحب كان يعاندهما ويناوئهما .. فساعة حبه غير مضبوطة على ساعة حبها .. فعندما تتقدم عقارب ساعته تتأخر عقارب ساعتها ، أو العكس .. وعندما تنتابه نوبة حب وغرام خوفا ، تنتابها نوبة بغض ونهرب منه .. وعندما تنتابه نوبة غيرة وشك ، تنتابها نوبة ثقة واطمئنان ، وعندما تنابه نوبة سخط عليها ، تنتابها نوبة رضا عنه .. وعندما يود لو علق لها بيده حبل المحبة وشنقها به ، تود لو انشقت الأرض وبلعته لترتاح منه ومن غله .. فعندما يكون هو في القطب الشمالي تكون هي في القطب الجنوبي .. وإذا تصادف أن التقيا عند خط الاستواء ، فحينئذ فقط يستوي حبهما وينضبط توقيته .

ومما زاد من توتر العلاقات بينهما الصدق ثم الصدق ثم أيضا الصدق .. فإذا كانا يختلفان في أشياء كثيرة فإنهما يتفقان في شيء واحد هو : حبهما الأعمى للحقيقة ونور الحقيقة .. ولأنهما مولعان بالحقيقة سمح كل منهما للآخر بقراءة يومياته .. وهكذا بمنتهى حسن النية تحولت اعترافات كل منهما إلى قرارات اتهام ومرافعات .. وتحولت صفحات يومياتهما إلى ساحة محكمة يقوم فيها كل منهما بدور القاضي والمتهم والمحامي عليه ، وممثل النيابة ومحامي الدفاع والشهود .. وعادة ما لم يجرؤ أي منهما أن يقوله للآخر وجها لوجه ، كان يقوله له فيما تقلم .. ثم بعد أن يريح كل منهما ضميره ينتظر بفضول مرضي ومزمن رد فعل الآخر وحكمه عليه .. أهو مذنب أم بريء .. وإذا تعمد تولستوي ألا يرد على زوجته لتكتوي بنارها فهو ينجح في ذلك إلى أقصى الحدود ، وتتقلب سونيا فوق جمر الحيرة وتكتب : « ليوفوتشكا لم يقل لي شيئا ، ولم يلمح بكلمة في يومياته ..

هل قرأ ما كتبته ؟ لا أعرف .. ويصدق وأمانة أعترف وأقر أن ما كتبته عنه كان شيئا في منتهى الدناءة والسفالة .. إني أخجل من إعادة قراءته » .

وتقتضي هذا الاتفاق كانت حياة تولستوي وسونيا تدور في مجالين .. مجال الحديث والكلمة المنطوقة من جهة ، ومجال القلم والكلمة المكتوبة من جهة أخرى .. والمعارك التي يكسبها أحدهما على الورق يخسرها الآخر .. ومن الطبيعي ألا يرضى هذا الآخر بذل الهزيمة ، وبسماحة ينقل جبهة القتال من الورق والحبر إلى الجبهة الأخرى ، ويقول بلسانه مالم يقله بقلمه ، فتنشب معركة جديدة .. ولو كان أي منهما يريد أن يقتل حب الآخر له .. لو إلى غايته باضراره المتعمد في تعرية نفسه .. والعجيب والغريب أن حبهما قاوم هذه المزايدات في الصدق والإخلاص .. فالحب يصنع المعجزات .

وعاد الزوجان التعيسان بسعادتهما إلى عزبتهما .. ومعهما ثمرة حبهما وبغضهما .. جنين يشق طريقه وسط الظلمات .. ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها .